حشايش ربما..

قصة جديدة بقلم شوقي بغدادي

لن أموت كما ينتظرون . إن الردهة تملأ الشمس ساعة الظهيرة . صحيح انها برهة عابرة ، وان الردهة ليست اكثر من فسحة تتسع لخطوتين ، ولكن ما علاقة ذلك بما يقولون ؟ هذا من الله .

عندما ماتت « عيوش » كان الأمر يختلف . فهي منذ ان ولدت ، كانت شاحبة ، ضعيفة البنية . وإنني لأذكر يوم اكتشفنا في منديلها دماً ، كيف ذعرنا جميعاً ، وصممنا ان نكتم الخبر فيما بيننا فلا يشيع في الحيّ . ولكن أي انسان في مثل هذه الجحور المتراكبة كان يستطيع ان يتنفس ، فلا يلتقط أنفاسه جار يشاركه الجدار ؟

في اليوم التالي سمعت « محمد يونس » يسألني وهو واقف على باب الدكان :

– كيف صحة اختك ؟

من اخبره بذلك ؟. ولماذا هذا الفضول ؟. كدت اثور في وجهه وأفهمه ان اختي ليست مريضة ، وان المريض هو واحد مثله لا همّ له إلا التدخل في شؤون الآخرين . كان عمرها قد انتهى . هذه حقيقة لا جدال فيها . ومع ذلك فمن اين لنا ان نرسلها إلى لبنان ؟ كانت تسعل من الصباح حتى المساء ، ونحن نراقبها مستسلمين ، وأمها تدعو لها على اثر كل صلاة . ولكن ابي كان يهز رأسه كمن يرى الغيب مرسوماً على جدار البيت القاتم . وعندما حملناها الى المقبرة ، من كان يظن ان الحي كله سوف يمشي وراءها ؟ لقد كانت عيوش مريضة في كل بيت كما يظهر . وعندما حملت متاعها الاخير الابيض ورحلت عن بيت اهلها كانت كأنها قد تركت نفس الوجوم في كل عين . كانوا ينتظرون اخبارها ابداً ، ويسألونني عنها ، وكنت أعرف ان أكثرهم كان يسألني خائفاً ، كأن العدوى لن تتسرب إلا الى صدره الخرب .

أما احمد ، فانه اصيب شاباً . انا لا أستطيع ان انكر ذلك . ولكن من يدري مع ذلك من اين اتته العلة ، ولماذا يجزمون بهذا السبب الواهي ؟ يا لله .. لن انسى ابداً تلك الايام وإن اوغلت في السنين .

انا احب السباحة على الشاطىء الذي يقابل « أرواد » مباشرة . فهناك يمتد الرمل الذي احب . وهناك كنت أمضي واحمد في ايام الصيف اللاهبة ، نخلع ملابسنا ، ونجعلها كومتين متلاصقتين فوق كل واحدة حجر يمنعها من التبعثر إذا ما هبّ الهواء . كنا نختلط دائماً بأترابنا من شباب الحي أو رفاق السوق ، ونخوض اليمّ عابثين . وكان منا من يتحدى الآخرين في المضيّ نحو « الزيرة » والعودة فوراً بعد شرب فنجان من القهوة بين الصيادين الذين يرفون شباكهم على شاطىء الجزيرة الشرقي . لكم كان احمد يهوى هذا السباق . كأنما هو على موعد أبدي مع الاعماق السوداء يستشقّها وهو يناضل بذراعين لا تتعبان ونَفَس لا يلهث . كانوا كلهم يعرفونه حتى « قوطوش » الأعمى ، فقد كان يصرخ باسمه كلما سمع ضربة يده على سطح الماء :

– أحمد خربيات .. تعال استرح الى جواري ..

هذه السمكة التي كانت تحير الماء ، هي نفسها التي وقفت ذات اصيل كالذهب ، على الشاطىء الرملي ، يتقزز منها الجميع ، ولا يجسر ان يقترب منها انسان إلا انا . لم يكن اخي فحسب ، فأنا لا اؤمن بالعدوى كما يتصورون، فها قد عشت معه سنتين بعد مرضه فلم تخترق صدري سعلة واحدة . كنا نذهب الى الشاطىء ، فأرى بوضوح ان رفاقنا يبتعدون في حذق ، وبالرغم من انني كنت أراه يتجرد امامي كل يوم تقريباً ، فقد كنت في تلك اللحظات ، عندما نقف وحيدين على الرمال وقد بدأنا نخلع ثيابنا ، لا أملك إلا ان ادير عنه وجهي وهو ينزع قميصه الداخلي عن صدره . لم يكن باستطاعتي ان انظر ببساطة الى هذا الجسد الذي اعرفه اكثر من كل الناس في الماضي القريب جسداً كخشب السنديان صلابة وامتلاءً وبريقاً ، يصبح الآن قفصاً متخلّعاً من العظام . ومع ذلك فكان يرفض إلا ان نذهب للبحر . ايها الماء .. ايها الماء .. لكم كنتَ عزاءنا في تلك الايام !.

مات احمد في احد فصول الصيف القاسية . احمد .. ثم تلته عيوش .. كانت عيناً تلك التي اصابتنا ولا ريب ، عيناً حسوداً كالخرز ، تثقب الجدران وترانا شباباً هانئين ، يمتلئين صحة وعافية !

ولكن الناس بدأوا ينصرفون عن اخبارنا الى اخبار اخرى فان بيت « عرفان » ظهر فيه المرض ، ووقع ابنهم الاكبر فريسة السلّ ، ثم مات بعد نصف عام . كنت أعرف الميت . فقد كان يعمل مع ابيه مثلي، وكان يسبق دائماً أباه في فتح الدكان، فأراه كل صباح قادماً من بعيد ، يلف اذنيه بوشاح قذر حتى في ايام تموز . لقد كان مريضاً منذ ان خلقته امه ، وليس السل أبداً هو الذي نقل مثواه إلى مقبرة البلدة .

وأفقنا ذات صباح على خبر جديد من هذا النوع . بيت « ابو البالات » ايضاً . ثم ظهر في بيت « محمد افندي يعرب » مع انه يقع في طرف الحي المشمس . فما دخلُ الشمس في الموضوع ! وهكذا سكت الموت عنا كأنه شغل بهؤلاء . ولكن امي كانت في ذعر دائم ، فان كل سعلة كانت تفسرها انها نذر العلة المميتة ، وكل بصقة في عينها تخالطها خيوط حمر . لقد كان الموت يعيش معنا ، يمد فراشاً بيننا على الحصير، ويفتح عيونه صباحاً مع عيوننا ويجلس بيننا على الطعام يأكل في صحوننا . كنا نتنفسه في الغرف ، والردهة وعلى السلم ، وفي الزقاق ، وفي انفاس الجيران ، وروائح البالوعات المفتوحة الاطراف كبطن منفوخ مشقوق ، وفي سواقي الماء التي تتلوى في وسط الازقة حتى في صميم هاجرة الصيف، يمرح فوقها الهوام ويغوص فيها اطفال الحي بارجلهم الحافية .

في تلك الايام، عندما سكن الداء أكثر من رئة راحدة، بدأت حارتنا تصبح على كل لسان . وصرت أسمع اهل البلدة اينما توجهت يتحدثون عن ذلك الحي الذي لا تدخله الشمس ، وعن وجوه سكانه ، وجوهنا ، تلك السحنات الضاوية ذات السمرة القاتمة ، وكنت أسمع من يتحذلق منهم فيلبس مسوح الطبيب المتحضر ليقول :

ـ طبعاً .. البيت الذى تدخله الشمس لا يلجه طبيب ..

الشمس ! أبداً هذا الكوكب المتألق يعلقوننا اليه في كل أزمة . ويردف آخر فيقول :

ـ لقد سمعت ان الحكومة سوف تهدم هذا الحي ..

عدت في ذلك اليوم الى البيت وقد ملأت رأسي أفكار غريبة جديدة . كنت ناقماً على احد الناس ، ولكنني لا أعرف من هو ، فلعلني كنت إياه ، لأنني لم أردّ على اولئك المروجين الادعياء ، ولكنني مع ذلك ، وقفت لأول مرة في حياتي في رأس الزقاق الذي تبدأ به الحارة حيث أدخل دائماً ، وفي ظل السور الاثري العملاق الذي يحد حارتنا من الشمال . وحلا لي ان اتملى المشهد الذي كان يقع امامي .

لم يسبق لي ابداً ان وقفت مثل هذه الوقفة كي انظر إلى هذا المكان الذي نعيش فيه . ولو سئلت مرة : صف لنا الزقاق الذي تعيش فيه ! لاعوزتني التفاصيل الباهرة ، وإن كانت كل خطوة من هذا الزقاق محفورة في دماغي . كان يجوز ان انسى ذكرها إذا أردت وصف المكان ، ولكنني في صميم الليالي المعتمة ، عندما لا يضيء لي الطريق شيء سوى غريزتي وتعودي كنت أنقل خطوة طويلة فوق البالوعة التي تعترض الزقاق . وكنت لا اخطىء في ذلك ابداً. إن الذي يقطن في بيت عالٍ قد يجهل عدد درجات السلم ، ولكنه يعرف دائماً وهو يرقاه في الليل بلا ضوء، انه يجب ان يلتصق بالجدار عند بعض الدرجات وأن يدوس برأس قدمه فوق بعض الدرجات الاخرى ، ثم يثبت قدميه في ثقة على العتبة الاخيرة .

في ذلك اليوم ، وقفت في فم الزقاق ، كساكن ذلك البيت العالي ، وقد حلا له أن يحصي عدد درجات السلم الذي يصعد عليه كل يوم عشرات المرات .

كانت البيوت كأنما قُدّت احجارها جمعاء من مقلع واحد فهي رملية متهرّئة خالية من الدهان ، ضيقة كجحور الفئران ، متلاصقة ، متراكبة كعلب الورق المقوّى ، معتمة كبعض الزرائب والاسطبلات المحفورة في السور الاثري الذي ينتصب شامخاً فوق حيّنا منذ مئات السنين . لون واحد هو الذي كان يصبغ كل هذه الدور ، لون الرمل الاصفر المحروق . وعندما بزغ لي فجأة وجه بنت عابرة ، ظهر لي كأنما هو حجرة اقتلعت من احد الجدران. نفس اللون الذي كان يصبغ الدور المتراكبة كان يصبغ وجوهنا ، مثل فئران الحقول التي تتلوّن بلون الارض التي تعيش عليها .

كانت كل البيوت تتشابه في مظهرها الخارجي والداخلي على السواء: عتبة صغيرة فيها ثقب تخرج منه المياه القذرة إلى الزقاق، وباب خشبي منخور ، لو دققت فيه مسماراً إلى نهايته لاستطعت باصبعين ان تسحبه من ثناياه . وكانت معظم البيوت تبدأ من الداخل بفسحة صغيرة قد لا يتجاوز عرضها الذراع في بعض الاحيان ، ثم غرفة إلى اليمين لها طاقة قرب السقف تطلّ على غرفة ثانية يتسرب اليها هواء الزقاق من طاقة اخرى عالية وبدأت احدّد وانا في موقفي مكان شروق الشمس كأنني

اتصور الزاوية التي يمكن ان يتسرب منها الشعاع إلى بيوتنا ، فأراني عاجزاً عن التصور . ثم اتخيلها عالية في كبد السماء . في تلك اللحظة كنت اتذكر مرورها العابر في ردهتنا الصغيرة ، وبعد ذلك ظل وظلام مستمران ، كنا نشعل قناديلنا مبكرين كثيراً ، فاذا كانت الشمس لم تغب في حساب الزمن وواقع الاحياء الاخرى من المدينة ، فانها كانت في واقعنا وحسابنا غاربة منذ ان تميل في قبة السماء قليلاً نحو الافق الغربي . منذ تلك اللحظة كان الليل يبتدىء عندنا .

كان الوقت ظهراً ، وكانت هناك طفلتان تلهوان على مبعدة بشيء لم اتبينه فوق التراب ، وسمعت صوت امرأة تنادي باحد الاسماء ، ثم تطلق دعاء ناقماً إلى الله ، تذكرت ان امي في هذه اللحظة لا بد انها في المطبخ تثرثر وخديجة وتخوضان في حديث لا ينتهي عن أشياء كثيرة خفية لا ندركها نحن الرجال .

كنت قد تركت مكاني واتجهت نحو البيت ، ومع ذلك فقد كنت احب هذا المكان . اما ان يمرض الناس فيه ويموتوا ، فهذه اشياء اخرى فوق مقدرتنا ، لا نفهمها .

دفعت باب بيتنا بقدمي :

— اين انت يا أم ؟ في المطبخ ؟ ماذا سنأكل اليوم ؟

ولكنني لم البث ان فقدت هزة المرح هذه بعد دقائق ، فلم اكد انتهي من طعامي حتى اسندت ظهري الى الجدار وقلت :

— إن الحكومة سوف تهدم الحارة كلها ..

رفعت اختي صوتاً كالشهيق ، وشحب وجه امي كصباح اليوم الذي ماتت فيه عيوش . لم اكن متأكداً ولكنني لا ادري لماذا وجد هذا الخبر مكاناً سحيقاً في نفسي منذ ان سمعت احدهم يلغط به في البلدة . إنهم يستطيعون ذلك بكل بساطة ، انا اعرف انهم يكرهوننا ، واننا في حسبانهم لا نملأ فراغاً في حياتهم ، فلتمح هذه القذارة من على وجه الارض .

كنت اعرف انهم قادمون يختبرون ، ولكنني لم اتصور ان يأتوا بمثل هذه السرعة ، كنا في الدكان عندما سمعنا بخبرهم ، ارسلني ابي إلى البيت كي استقبلهم وبقي وحده في الدكان . وهناك رأيتهم في الزقاق . كانوا ثلاثة يرافقهم دركيان ، يتطلعون إلى البيوت من الخارج ، وقد يدخلون لبضع ثوان ثم يخرجون عجلين كمن يمد يده في وكر ثم يحس فجأة بوخزة وحشية في اصابعه . ليتهم دخلوا بيتنا ؛ إذن لاريتهم كيف ان بعض البيوت في حيّنا المريض ، الذي يحسونه احلى مما يتصورون ، ولكنهم لم يدخلوا ، وإنما اكتفوا بنظرات فاحصة طويلة إلى جوانبه ثم انصرفوا .

مرّ بعد ذلك اليوم زمن طويل ، كدنا ننسى فيه انهم حضروا حقاً . حتى لقد دفعني الفضول ذات يوم إلى ان اذهب للسراي فأسأل احد موظفي البلدية عما قرروه ، فأجابني :

— سوف يأتون .. سوف يأتون ..

ولكن متى يأتون حقاً ؟ كنا ننتظرهم جميعاً . وفي ليالي الصيف المقمرة ، كنت اسمع صوت النساء الساهرات يصل إلي واضحاً وانا قابع في الردهة مع ابي نختلس بارقة من الكوكب المتألق . ومن خلال السمر كان يطلع فجأة صوت يسأل :

— ترى متى سوف يحضرون ؟

ثم يرين الصمت ، فأتخيلهن يتطلعن إلى السطوح الغارقة تحت النور ، المتصلة كأنها سطح واحد ، حتى ليستطيع احدنا ان يزور آخر بيت في الزقاق دون ان ينزل إلى الارض . ثم تقول اخرى :

— اذا هدموا بيوتنا فلسوف يعطوننا بيوتاً اخرى .

ولكن كان من الصعب ان نتصور انفسنا في بيوت اخرى ، ثم اسمع صوت خديجة :

— يُقال انهم سوف يبنون لنا بيوتاً عند اطراف البلدة .. في الرمل .. قرب الثكنة العسكرية ..

اذن يريدون ان يرمونا في ذلك العراء ؟! ألا تباً لهؤلاء ، يقررون مصائرنا دون ان يقيموا لآرائنا وزناً !

واخيراً جاؤوا . وكمن يتطلع الى فرجة نادرة مسلية وفد على الحي أناس من جميع الاحياء الاخرى يشاهدون زوال قسم من مدينتهم . اما نحن سكان الحي ، فقد كنا نشاهد العمال من نوافذنا ، يبدأون ببيت «عرفان» الذين تم ترحيلهم قبل اسبوع . ولقد انسى كل شيء ، الا هذا المشهد ، يوم بدأت بعض الطنابر الصغيرة تتسلل في الزقاق تحمل اثاث البيت القليل ، ويخرج وراءها الاولاد ، وكل يحمل حاجة وهم يقفزون فرحين .

تمّ ذلك في نصف نهار . وعندما خرج الأب . والأم اخيراً وراء آخر طنبر ، بكت الام ، فزجرها زوجها ، ودفعها بيده دفعة خفيفة خجلة ، ثم أسرع في سيره ، فاضطرت المرأة لأن تتبعه وهي تسوّي من حجابها ، متعثّرة بملاءتها السوداء .

وداعاً يا جيران .. وداعاً .. وإن لم أقلها لكم جهاراً في ذلك اليوم . ولكنكم تعرفون واثقين ان مئات القلوب كانت

نحو التجديد الصحيح

بقلم عيسى الناعوري

بعد الحرب العالمية الاولى ، حينما قامت معركة الادب بين القديم والجديد كان الذي أثارها رغبة المجددين في مصر في تسهيل اساليب الكتابة ، ولم يكن لهم من الأهداف الحيوية ابعد من ذلك ، الا لدى الاقلين . فغاية التجديد عندهم كانت تقف عند حدود العبارة واللفظة ، ولكنها لم تكن ترمي الى مسايرة الحياة وتطور المجتمع ، ولم تكن تهدف الى ترقية الشعب واستحثاثه للنهوض . ولذلك رأينا الادب المصري — على الاخص — يدور في حلقة مفرغة من الدراسات القديمة ، او التحقيقات والشروح للكتب القديمة ، وكانت عناصر « الابداع » فيه — على اقلام دعاة التجديد — أضأل من ان ترى بالعين المجردة . فأنت ترى ان زعيم دعاة التجديد في مصر — الدكتور طه حسين — لم يزد في عنفوان ثورته التجددية على ان انصرف الى الادب القديم ، يشك في بعضه ، ويستنتج الآراء في بعضه ، ويهدم بعضه ، ويقيم انقاض بعضه ، فرأيناه يؤلف في الادب الجاهلي ، فيثير الدنيا على رأسه ، ثم يؤلف في أبي العلاء المعري ، وابن خلدون ، والمتنبي ، ولا يزيد في دروسه الجامعية ومؤلفاته الادبية على هذا النوع من التجديد . ومثل ذلك ما فعله المازني والعقاد مثلاً ، في : حصاد الهشيم ، وقبض الريح ، وابن الرومي ، وساعات بين الكتب ، وأمثالها . فاذا سألتهم : وأين حظ الحياة والشعب والمجتمع العربي — او على الاقل المصري — من هذه الدروس والتآليف ؟ فكأنما تلمح على شفاههم بسمة اشفاق .. من هذا السؤال الذي لعلهم كانوا لا يعتبرونه من خصائص الادب ، ولا من واجبات الأديب .

واما الذين لم يُغرقوا في القديم من دعاة الثورة التجديدية او الذين ساروا على نهجهم من بعدهم ، فقد اغرقوا في الابتعاد

واجفة يوم تركتم الحي الى غير رجعة كأنكم ذهبتم الى المقبرة . لقد رأيت بيتكم الجديد في العراء من بعيد كوخاً نائياً منبوذاً وكان بودّي ان آتي فأهنئكم عليه ولكنني لم استطع ان اكذب .

هدم العمال ثلاثة بيوت ، ثم توقفوا ، وبقي الركام مكانه . ومرّ زمن طويل ظهرت خلاله بعض الاصابات ، ولكن سكان المدينة رغبوا عن اخبارنا ، كأن موتانا لم يعودوا يذكرونهم . انهم سيموتون ايضاً مثلنا ذات يوم .

ها قد مرّت سنتان تقريباً على هدم بيت « عرفان » ولست اعرف الآن بالضبط كيف يعيش جيراننا القدماء الآن ، وإن كنت اتطلع الى كوخهم النائي كلما مررت على الطريق العام يوم الجمعة في مشوارٍ مسائي . اما الذعر الذي يشغل امي فلم يهدأ ، وأما ابي فما يزال يهز رأسه كمن يرى الغيب مرسوما على جدار البيت القاتم . ومن حينٍ لآخر ، كان ابي يذكر الشمس ، وضوء الشمس ، فأصرّ على أسناني . من لي بهذا القرص ، أنتزعه من قلب السماء وأثبته في جدار مطبخنا جذوة لا تخمد . أكان احمد ما نحل عوده ولا مات . أكانت عيوش ما سعلت من الصبح حتى المساء ثم اختنقت باحدى سعلاتها ورحلت عن البيت . أكان كل هؤلاء الذين ماتوا ، بقوا على وجه الأرض يحترقون ازقة الحي كل صباح الى عملهم !. إنهم ميّتون . فاذا عاد العمال ذات يوم الى حيّنا فلسوف استقبل معاولهم بصدري قبل ان ادعهم يمسّون جدران بيتنا بضربةٍ واحدة .

كانت أمي تقول : « احذر من أن تمرض يا بني » ولكن ماذا أصنع ، أنا لن أموت كما ينتظرون ، ان الردهة تملؤها الشمس كما يتمنون ، وهذه السعلات البسيطة التي تهز صدري أحياناً لم تستطع أن تهدم مني شيئاً .

كنت سمعت منذ ايام ان بنتَ « محمد فريج » مصابة وانها تموت ببطء . واليوم ، كانت الشمس حادّة ، وكنت اقف في فم الزقاق ارقب الحي كله بعين مجهدة ، واري الى صبيين ملتصقين باحد الجدران . قد تعرّضا للشمس . وأغلقا عينيهما كمن يرفع وجهه الى السماء مستحماً تحت المطر ، ثم أخذت اسعل بهدوء سعلات خفيفة متقطعة ، صارت تشتد شيئاً فشيئاً ، فوقفت دامع العينين احاول ان التقط نفساً من الهواء ، وانا احسّ ان صدري يتمزق وان معولاً يفتح في صدري غوراً ، ثم شعرت انني اريد ان ابصق ، فبصقت ، وكانت تخالط بصقتي خيوط حمراء . ولكنني كنت واهماً ولا شك ..

طرطوس

شوقي بغدادي

من رابطة الكتاب السوريين